الفصل الأول

نشأة الصحافة

الصحيفة ، من مجلة دورية وجريدة سيارة ، هى ذلك الكتاب الذى يطالعنا فى موعده ، صباحاً كان أم ظهراً أم عصراً أم مساء ، أم اسبوعيا أم شهريا ، أم دوريا كل ثلاثة أشهر أونحو ذلك .

إنه كتاب ، يختلف عن الكتب العادية التى نقرؤها ونودعها خزاناتنا ، إنه كتاب جار دوار سيار ، يصيد كل ما يقع عليه شباكه ، ويبادر إلى عرضه فى عجلة ولهفة ، شعاره : عدم فوات الوقت ، وعدم إضاعة الفرصة . فالقارىء العادى يجد فيه بغيته من الأنباء والبحوث العامة الملخصة ، والتاجر يتناول منه أنباء السوق التجارية ورأى الاخصائيين فى الحركة الاقتصادية ، والعالم يقف على أنباء المخترعات الحديثة ودراسات الاخصائيين فيها ، والرياضى يعلم أنباء المباريات ونشاط الأبطال ومواعيد الحلبات ، والسياسى يحيط بالتطور السياسى المحلى والخارجى ويبنى على ما يعلمه خطته وموقفه

والطالب يدرك الصلة بين دروسه وبين هـذا العالم الدوار السيار ، والعامل يفوز بدرس حياة الناس وحياة العمال الآخرين .

* * *

هذه العناوين الكبيرة المسترعية للأنظار ، هذه السطور المتراصة ، هذه الكلمات المطبوعة ، هذه الجمل المتدفقة . هـذه النيران المتأججة في بطون الندامات والمقالات والخطب . هـذا الطعام الدسم وهذا الحلو القريب التناول ، هذا المرطب المهدى للانصاب .

هـذا النبض المتحرك في سرعة بالغة ، أو المتباطىء في تؤدة متابعة . هذا الخير ، هذا الشر ، هذا الصحيح ، وهذا الباطل ، هذا الغلو وهذا الايجاز والغموض .

هذا بعض ما تؤديه الصحيفة لنا ، حين نرقبها ، وحين نقرؤها وحين نستعيدها ، وحين نعقب عليها .

هي حياة زاخرة ، حافلة بل قل إنها هي الحياة بحذافيرها .

* * *

أما عن النشأة الأولى لهذا الوليد ، حين كان سعيدا وحين يكون شقيا ، فأصدق ما يقال إنه لا يعرف على وجه الدقة ، متى بدأت

الصحافة و كيف بدأت ، وحسبنا أن نذكر أن عند بعض المتحدثين عن الصحافة ، أنها قد بدأت فى صورة الأوامر والتبليغات التى كانت الحكومات تعمد إلى إذاعتها على الجمهور شفهياً . و كانت طريقة الاذاعة إيفاد رسل يحملون مكاتيب مكتوبة على ورق البردى الى كل إقليم . و كان هؤلاء الرسل فى حركة دائمة . و كانت لهم محطات معينة يتجهون اليها بما يحملون من الرسائل . وكانت لهم جياد فى كل محطة من هذه المحطات . ومتى وصلت الرسالة الى حاكم الإقليم أذاع ما فيها على سكان إقليمه ، وقد يلجأ فى بعض الأحيان إلى إطلاق المنادين ينادون بما فيها . ولقد كانت الإذاعة على أيدى المنادين طريقة منتشرة فى مصر الى سنين ، وأنها ما زالت تستخدم الى وقتنا هذا فى بعض القرى . وأخص ما تستخدم فيه نعى المتوفين الى أهل القرية كى يجتمعوا ويشيعوا المتوفى .

ولكن الحكومة كانت لديها تبليغات أخرى ليس من الضرورى أن تريد لها الإذاعة على عجل ، أو هى تريد لها هذه الإذاعة ثم تريد لها الى جانبها إذاعة أقوى ، فكيف كانت وسيلتها إلى ذلك ؟

كانت وسيلتها النقش على الحجر ، وكان لا بد لها حينئذ من أحجار عدة تنقش على كل واحد منها نسخة من التبليغ الذى تريده ثم تبعث بها إلى حيث توضع فى المعابد التى يكثر تردد الناس عليها

ومن هذه الأحجار حجر رشيد المشهور والذى كان وسيلة للوقوف على سر الكتابة المصرية . وقد وجدت من هذا الحجر إلى الآن نسختان إحداهما هى التى أخذها الانجليز فى حملة بونابرت ووضعوها فى المتحف البريطانى ، والثانية عثر عليها بعد ذلك وهى توجد الآن فى المتحف المصرى .

ولقد كان حجر رشيد مكتوباً بثلاثة خطوط : اليونانى والديموطيقى والهيروغليفى . وهذان الخطان الأخيران من خطوط اللغة المصرية وإنما كتب الحجر بلغتين وثلاثة خطوط لأنه كتب فى عهد بطليموس الخامس فى نحو سنة ١٩٦ قبل الميلاد وكان الغرض من كتابته إذاعة قرار أصـــدره المجمع الدينى فى مدينة منفيس لمصلحة بطليموس هذا ، فكان الخط اليونانى لليونانيين ، والخط الديموطيقى لعامة الشعب ، والخط الهيروغليفى للكهنة . وبذلك يسعنا أن نقول إن حجر رشيد كان جريدة واسعة الإنتشار .

على أنه ينبغى أن نذكر أن مصر لم تنفرد باستخدام النقش على الحجر لإذاعة التبليغات والأخبار إذ كان فى معرض الصحافة فى كولونيا (بألمانيا) فى ١٩٢٨ قطعة من الحجر وجدت فى جزيرة كريت ، ويرجع تاريخها إلى ما قبل المدنيه اليونانيه ، وقد حفرت عليها إشارات ورموز ، فلما قرئت هذه الإشارات والرموز عرفت أنها

دعوة إلى وليمة . وإلى جانب هذه القطعة، قطعة أخرى من الخشب وجدت في استراليا ويرجع تاريخها إلى أكثر من ألفي سنة وعليها نقوش هي أيضا دعوة إلى وليمه . فهاتان الدعوتان على الحجر والخشب هما إذن الجد الأعلى ، الذى نعرفه ، لما تنشره الصحف الآن من أخبار الزواج والولائم والدعوة إليها .

، قد كانت الصحافة ، إلى ما قبل اختراع المطبعة فى القرن السادس عشر ، تختلط بالكتابة وبالبريد ، فتاريخها فى تلك العصور القديمة هو تاريخهما ، أما بعد اختراع المطبعة فقد انفصلت الصحافة عن الكتابة وعن البريد وصارت شيئاً ضخماً مستقلا بذاته ، ليست الكتابة وليس البريد إلا بعض أدواته (١)

---

(١) المحاضرات الصحفية فى ١٩٣٦

أقدم جريدة فى العالم

ليس من الميسور معرفة نشأة أول جريدة صدرت فى العالم ، ومما يقال إن جريدة رومانية صـــدرت فى عام ٥٨ ق . م باسم « الأعمال الرسمية » أو « الوقائع الرسمية » وأن الامبراطور يوليوس هو الذى أسسها وأمر كبار موظفى دولته أن يدونوا جميع أعمالهم اليومية على لوح يعلق فى الميادين العامة . كذلك صدرت فى روما صحيفة أخرى غير رسميه وقد انتشرت انتشاراً واسعا وكانت ذات ثلاثة أبواب . يتناول أولها الشؤون السياسية وأمور الدولة والأقاليم وميادين القتال . وثانيها أخبار الدواوين والمحاكم والأحزاب . وثالثها الأخبار العامة كأخبار الزواج والوفيات وحوادث الطلاق وما إلى ذلك . ويبدو أن هذه الصحيفة كانت تكتب بلغة أثارت انتقاد علماء اللغة فى ذلك العصر . كما شكا منها الفيلسوف سنيكا لأنها تتوسع فى نشر حوادث الطلاق وفى تفصيل فضائحها ونؤثر أن ننقل من نسخة من هذه الصحيفة منقولة فى كتاب تاريخى بعض النبذ التى جاءت فيها :

« اجتمع اليوم لفيف من القضاة فى منزل القنصل سيسينيوس »

« هبت العاصفة أمس على أكمة فيلى . وانقضت صاعقة على سنديانة

عند سفح تلك الأكمة » .

« وقعت مشاجرة عظيمة فى حانة على أكمة جانوس فأصيب صاحب الحانة بجراح خطرة » .

« عوقب أمس عدة من الجزارين لبيعهم لحوما قبل فحصها . وستستعمل الغرامات التى أخذت منهم لبناء معبد للآلهة فرنا » .

« قبضت شرطة نيوفا على اللصوص وميفون ونفذت فيه حكم الصلب فى اليوم عينه » .

« وصل اليوم الأسطول قادما من سواحل آسيا » .

أما أول جريدة ظهرت فى بلاد الصين . فهى جريدة تصدر الآن يومية اسمها « كين بين Kine Bane » وكانت لسان الحكومة وصدرت فى ٩١١ وأما أول مجلة فى الصين فهى « تسين زاو » أى « المجلة » وقد صدرت فى القرن السادس .

وكانت جريدة « كين بين » فى بدء صدورها شهرية أيضاً ثم ازداد انتشارها ، وتعددت موضوعاتها التى كانت تراعى فيها ميول الخاصة والعامة فصدرت منذ عام ١٨٣٠ يومية . ونظراً لانتشارها المطرد أصبحت تصدر ثلاث مرات فى اليوم على ورق ملون لكل طبعة ورقها الخاص : فطبعة الصباح لونها أصفر ، وطبعة الظهر ورقها أبيض

وطبعة المساء لونها رمادى . ولم يحدث مثل هذا التقدم فى جرائد أوربا وأمريكا إلا فى القرن العشرين .

وكانت الحروف التى استخدمها الصينيون فى طبع هاتين الجريدتين تصنع من الخشب ، وهى الحروف التى أبتدعت منذ اختراع الطباعة فى القرن الثالث عشر الميلادى .

والذى دعا الصينيين الى اختراع الطباعة هو كثرة تداول الكتب الدينية فى بلادهم التى يزيد عدد سكانها على ٤٠٠ مليون نسمة ، فبدأ الكهنة ينقشون الحروف الصينية على الخشب الصلب ، ويستخدمونها فى طبع الكتب بدلا من كتابتها أو نسخها باليد .

أما الكتب الدينية الصينية فهى من أضخم الكتب المقدسة فى العالم فمنها « الكابو ندجور » المؤلف من ١٠٨ مجلدات ، وشرحه « التاندجور » المؤلف من ٢٠٩ مجلدات . .

وقد لزم لصنع القوالب الخشبية لطبع « الكاندجور » أكثر من ست عشرة سنة ؛ واشتغل فى طبعه ٤٥ عاملا لمدة ثلاثة شهور ، أما « التاندجور » فاستغرق فى صنع قوالبه وطباعته سنة كاملة .

ومما طبع على القوالب الخشبية جريدة كين بو (Kine Bou) وقد صدرت فى الصين حوالى ١٥٥٠ . ثم تلتها (الجازيت دى فينس (Gazette de venice) . هذا واسم الجازيت مشتق من (الجازيتا)

وهى قطعة صغيرة من النقود كانت متداولة يومئذ فى البندقية (فينيسيا) . على أن الجرائد الأولى المهمة ترجـــع إلى بداية القرن السابع عشر . فكانت (الجازيت) وهى صحيفة دورية فرنسية كان يصدرها تيوفراست رينودوت Théophraste Renaudot وهو بروتستانى رحالة حصل من ريشيليو فى ٣٠ مايو سنة ١٦٣١ على امتياز يخوله وأولاده حق طبع الغازيت دواما . وكانت المجلة أسبوعية فى أربع صفحات ثم فى ثمان وكانت تنشر أخبار فرنسا والخارج ، وكانت شبه رسمية ومن غير مقالات رئيسية .

ونهج كولبير Colbert نهج ريشيليه وعرف حاجة البلاد الى صحيفة تتخصص للكتب والفنون والعلوم أى لتوجيه الحياة العقلية والسياسية للبلاد . ففى سنة ١٦٦٥ ظهرت جريدة (الجورنال دى سافانت — صحيفة العلماء) وكانت علمية سياسية ، ثم صحيفة (Le Mercure) وكانت تنشر الموسيقى وأخبارها والأدب والأغانى والشعر وأخبار الزواج والوفيات والترقيات والتعيينات .

ومنذ ختام القرن السابع عشر — ظهرت الصحف بأنواعها الثلاثة : ١ — السياسية ٢ — الأدبية ٣ — الجرائد والمجلات ولم تكن هذه الصحف يومية بعد .

أما أول صحيفة يومية صدرت فى انجلترا فى سنة ١٨٠٢ فى

أول القرن الثامن عشر، فكان اسمها (The Daily Crown) وأما أول صحيفة يومية فى فرنسا فكانت الجورنال دى پارى (Le Journal de Paris) فى سنة ١٧٧٧ وكانت تنشر أخبار المسارح والأدب والحوادث المختلفة ، والقضاء ، واعلانات الأشياء المفقودة ، والبورصه ، والحوادث ، كما تعنى بالنقد الأدبى ، والنشرات الصحيه ، ولم تكن تنشر المقالات السياسية ، ولكنها احتجبت مع الثورة .

أما فى سنة ١٧٨٩ فقد صدرت أكثر من ١٤٠ جريدة كانت شديدة اللهجة ، ومنتمية للأحزاب السياسية تبعاً لنتائج الثورة الفرنسية ذاتها . وقد صدرت صحيفة المونيتور يونيفرسال (Moniteur Universel) وهى صحيفة سبقت الجريدة الرسمية التى انشئت للأخبار الرسميه الخاصة بمصالح الحكومة . وصدرت فى التاريخ ذاته الجورنال دى ديبا Le Journal des Débats أنشأها (Ganthier de Bauziat A' Auvergne) المحامى ونائب فى الدولة الثالثة ، وكانت وريقه تنشر صباحا مناقشات الجمعية وكان مضافا الى اسمها (J . D . et Deerêts) .

أما الصحافة الانجليزية ، فكانت حرة وغزيرة المادة ويرجع ذلك إلى قانون Libel — Act ، وكان الوزير البريطانى الأول وليام بيت William Pitt يرى أنه لا خوف من الجرائد ما دامت

فى يد الأغنياء ، وذلك بفرض الضرائب عليها ولكونها غالية الثمن ومنذ نشرت الجرائد الاعلانات أصبحت الجرائد رخيصة السعر .

ويرجع إنشاء الصحف الكبرى فى انجلترا إلى جهود ثلاثة من ايقوسيا. ففى سنة ١٧٨٥ أنشأ John Walter التايمز (Times) جريدة يومية عامة ومستقلة عن الأحزاب . وفى التاريخ ذاته تقريبا أنشأ (James Perry) جريدة (Morning Chronicle) وأنشأ (Daniel Stewart) جريدة (Morning Post) .

وزادت هذه الصحف أهمية خلال القرن التاسع عشر .

وكان من ثمار التجديد الصناعى فى القرن التاسع عشر ، أن حل البيع محل الاشتراكات .

وكانت آلة الطباعة فى ٢٨ نوفمبر سنة ١٨١٤ فى مطبعة التايمز فنشرت يومئذ مقالا مفصلا عن الاختراع الجديد ففى الساعة الواحدة تم طبع ١١٠٠ نسخة .

وفى الوقت نفسه اخترع الحبر — حبر المطابع فى فرنسا ،

وكذلك ظهر التصوير الصحفى والصحف المصورة وسهلت المواصلات وخاصة بعد اختراع القطر الحديدية ، والتلغراف والتليفون ، ثم ظهر الورق الصحفى المعروف برخصه .

وفى الوقت ذاته استطاع (Benjamin Day) ثم Gordon Benett فى أمريكا زيادة انتشار صحفها . فقد أنشأ (بنيامين) فى سنة ١٨٣٣ (Sun) و (جوردون) فى سنة ١٨٣٥ (The New York Herald) واستخدم (بنيامين) أول تحقيق صحفى (reportage) فى كل مكان فى نيويورك وغيرها (واشنجتون وأوربا) .

وحقق (Norse) اختراع التلغراف ونهج (Millan) فى فرنسا نهج (بنيت) فأصدر فى سنة ١٨٦٥ (Le Petit Journal) وأصدر (C Oonner) فى سنة ١٨٨٨ (Star) التى نشرت الطريقة الأمريكية . وشجع (Star) القراء بالمباريات والجوائز القيمة .

ثم ظهر فى الميدان لورد نورثكليف .